مدام ماريا منتسوري

[من كتاب تحت الطبع]

بقلم المربية الفاضلة

الآنسة نبيهة الحكيم

فذلكة تاريخية

مدام ماريا منتسوري مربية إيطالية الجنس . ولدت بإحدى مدن إيطاليا ، ونالت نصيبها من التعليم كسائر فتيات عصرها ، حيث دخلت المدارس الابتدائية فالثانوية ، ثم رغبت في أن تكون طبيبة ، فدخلت مدرسة الطب ، وساعدها ذكاؤها ومهارتها على النجاح الباهر ، ولما أتمت دراستها أخذت تتمرن في المستشفيات المختلفة ، وكانت في خلال تلك المدة مثالاً حسناً للجد والاجتهاد .

بعد انتهاء مدة التمرين اشتغلت ملجأ للأطفال البلهاء المصابين بالعاهات العقلية ، والذين فقدوا القدرة على استعمال بعض حواسهم كالإبصار أو السمع الخ . فدأبت على الاشتغال بإخلاص في إيجاد أنجع الوسائل لتحسين حال هؤلاء المساكين ، فأعدت لهم بعض الوسائل لتدريب عقولهم وحواسهم .

وفي تلك الأثناء دلتها الخبرة والتجربة ، على أن أحسن طريق لتمرين وتقوية الإدراك في الأطفال ، هو إيصال المدركات إلى أذهانهم بواسطة الحواس ، ووجدت أنه لا يتم ذلك إلا عملياً وباشتراك حاسة مع الأخرى في ذلك ، حتى إذا فشلت واحدة نجحت الأخرى ، فاتبعت هذه الطريقة فلاقت نجاحاً شجعها على زيادة البحث في هذا المشروع الانساني .

ولما أدهشها ما رأته من التقدم المحسوس في معالجة الأطفال البلهاء على هذه الطريقة ، جعلت تفكر في نفع الأطفال عموماً ، بإعداد الوسائل التي تقوى جميع حواسهم ، لأنها أيقنت أن الإدراك لا يتم إلا إذا كانت جميع أعضاء الحس صحيحة وناسية نمواً كاملاً .

ثم إن ماريا تزوجت ، وكانت تتردد على زيارة المدارس وتتباحث مع معلميها ومعلماتها ونظارها ، ولما أن توفي زوجها أسرعت إلى تنفيذ فكرتها ، فاشتغلت بتعليم صغار الأطفال على هذه الطريقة الحسية العملية ، ووضعت نصب عينيها صحة تربية الحواس ، حتى تكون عوناً للطفل على التعليم الصحيح .

وقد ذاع صيتها وانتشرت طريقتها بفضل ما نشرته من مقالات في شهري مايو وديسمبر عام ١٩١١ ؛ كذلك ظهر لها مقال في يناير سنة ١٩١٢ في مجلة مكاير McClure معلناً شيئاً عن

عملها . على أنه بعد ظهور أو لمقال لها ، اهتم كثيرات من الانجليزيات والامريكيات ، بفحص عملها وطريقتها التي وجدتها جديدة ومهمة ، مهمة على الأقل باعتبارها أول عمل من نوعه ابتكاري في برنامجه وفي تطبيقه العملي ، قامت به سيدة أعملت فيه فكرها ويدها .

كما أنه مشروع خصته بجزء كبير من عطفها النسوي ، وضمنته أوسع حالات المجتمع وطرق التعليم الصحيح ، والمثابرة على تلقي وفحص أبواب المعارف ، مما جعله مشروعا اعتبره قادة التربية والتعليم في العالم . ولقد انقطعت لعملها وتفرغت له بكل إخلاص كما فعل بستالوزي وفروبر من قبلها وترتيبها عملها مما تلقت نظر .

ولقد عارض البعض مدام منتسوري في أنها أوجدت هذه الفكرة ، وأثبتوا أنها لم تأت شيئاً جديد في التربية ، حيث سبقها بستالتسي وفروبل وابن خلدون وغيرهم إلى إثبات ضرورة تربية الحواس .

ونحن إذا نظرنا إلى محتويات كتابها المعروف « بطريقة منتسوري وشرحها » ، وتأملنا ما هيأت فيه من طرق ووسائل تستعمل مع النشء ، ولاحظنا كيف بنت الوسائل (جهازها المعروف باسمها) على حرية معقولة للتلميذ ، وما يحتوي على تمرين مباشر فردي للحواس والمشاعر والقوى العقلية ، وكيف يرشد إلى سرعة وسهولة التغلب على القراءة والكتابة والحساب . . . لو تأملنا في أي نقطة من تلك النقط لما وجدنا واحدة منها جديدة ، أو لم تذكر في أساليب التربية ، بل إن بعضها قد استعمل عملياً وبدقة .

فمثلا كثير من وسائل (دكتور لترفرنلد) رئيس مدرسة ناقصي العقول ، يضارع وسائل منتسوري ، وكثيراً ما أشار ولتر إلى إمكان استعمالها بنجاح مع الأطفال الأصحاء . وربما يهم الباحث معرفة أن (صجين sèguin) الذي جعلت مدام منتسوري عمله أساساً لعملها ، كان في زمن ما رئيساً لمدرسة ناقصي العقول التي كان بها ولتر .

وكثيراً ما أشار أساتذة علماء النفس إلى أهمية التمرين المباشر للنقص النفسي الحسي .

ولكن المهم والذي يجب أن نذكره إنصافا لمدام منتسوري ، هو أنه لم يتمكن أحد قبل منتسوري من إظهار خطة تتضمن ارتباط جميع النقط المتقدمة ؛ لأنها فهمتها وبالغت فيها من حيث التمرين وعممتها في المدارس . ومما لا ريب فيه أن كل هذا نتيجة عملها ومساعديها . أما وضع ملخص تجاربها في برنامج التربية للأطفال الأصحاء فعملها منفردة .

والنقط التي اقتبستها من عمل المربين القدماء والمحدثين — إنما اقتبستها لأنها توافق مبادئها . على أن عملها ليس ابتكاريا بنسبة عمل فروبل مثلا ، بل بنسبة أن عمل جديد أجهدت نفسها فيه امرأة .

ونرى من اللازم على كل مربية أن تعرف برنامجها وأجهزتها ، بغض النظر عن أن معظم هذا لم يسهل جميع المسائل التي تتعلق بتربية النشء ، وبالرغم من أن هناك بعض الخطط غير الصحيحة . ولو أن الأمور تجري على غير ذلك في شتى التجارب لخدمت جميعها في التعليم وغيره ؟

زينب الحكيم